﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾

أى : مع كونهم لم يؤمن أكثرهم ، فالله تعالى هو العزيز الذى لا يُغلَب ، إنما يغلب ، ومع عزّته تعالى فهو رحيم بعباده يفتح باب التوبة لمن تاب .

ثم ينتقل السياق القرآنى من قصة سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلى قصة أخرى من رَكْب الأنبياء ومواكب الرسل هى قصة نوح عليه السلام :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

القوم : هم الرجال خاصة ، وسُمُّوا قوماً ؛ لأنهم هم الذين يقومون بأهم الأشياء ، ويقابل القوم النساء ، كما جاء شرح هذا المعنى فى قوله سبحانه : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الحجرات]

فالرجال هم القوم ؛ لأنهم يقومون بأهم الأمور ، وعليهم مدار حركة الحياة ، والنساء يستقبلْنَ ثمار هذه الحركة ، فينفقونها بأمانة ويُوجِّهونها التوجيه السليم .

والشاعر العربى أوضح هذا المعنى بقوله :

وَمَا أَدْرِى ولسْتُ إخَالُ أدْرِى ... أَقوْمٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِسَاءُ(١)

ونفهم أيضاً هذه القوامة للرجل من قَوْل الله تعالى حينما وعظ

---

(١) هو قول زهير بن أبى سلمى ، شاعر جاهلى . قال ابن الأثير : القوم فى الأصل مصدر قام ثم غلب على الرجال دون النساء ، ولذلك قابلهن به ، وسموا بذلك لأنهم قوّامون على النساء بالأمور التى ليس للنساء أن يقمن بها . وقال الجوهرى : ربما دخل النساء فيه على سبيل التبع لأن قوم كل نبى رجال ونساء . [لسان العرب ـ مادة : قوم] .

آدم وحذَّره من الشيطان : ﴿إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ .. (١١٧)﴾ [طه] وحسب القاعدة نقول : فتشقيا .

لكن الحق - تبارك وتعالى - يقول : ﴿فَتَشْقَىٰ (١١٧)﴾ [طه] أنت يا آدم وحدك فى حركة الحياة ، فالرجل يتحمل هذه المشقة ويكرم المرأة أن تُهَان أو تشقى ، لكن ماذا نفعل وهى تريد أن تُشقِى نفسها ؟!

ونلحظ أن الآية تقول : ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥)﴾ [الشعراء] كيف وهم ما كذَّبوا إلا رسولهم نوحاً عليه السلام ؟ وكانوا مؤمنين قبله بآدم وإبراهيم مثلاً .

قالوا : لأن الرسل عن الله إنما جاءوا فى أصول ثابتة فى العقيدة وفى الأخلاق لا تتغير فى أى دين ؛ لذلك فمن كذَّب رسوله فكأنه كذَّب كل الرسل ، ألاَ ترى أن من أقوال المؤمنين أن يقولوا :

﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٤)﴾ [آل عمران]

وقال تعالى : ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ .. (٢٨٥)﴾ [البقرة]

فإنْ قُلْتَ : فماذا عن اختلاف المناهج والشرائع من نبى لآخر ؟ نقول : هذه اختلافات فى مسائل تقتضيها تطورات المجتمعات ، وهى فرعيات لا تتصل بأصل العقائد والأخلاق الكريمة .

لذلك نجد هذه لازمة فى كُلِّ مواكب الرسالات ، يقول : المرسلين ، المرسلين ؛ لأن الذى يُكذِّب رسوله فيما اتفق فيه الأجيال

من عقائد وأخلاق ، فكأنه كذَّب جميع المرسلين .

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾﴾

وقوله تعالى : ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الشعراء] يريد أن يُحنِّن قلوبهم عليه بكلمة ﴿أَخُوهُمْ .. ﴿١٠٦﴾﴾ [الشعراء] التى تعنى أنه منهم وقريب الصِّلة بهم ، ليس أجنبياً عنهم ، فهم يعرفون أصله ونشأته ، ويعلمون صفاته وأخلاقه .

لذلك لما بُعث النبى ﷺ وأبلغ الناس برسالته بادر إلى الإيمان به أقرب الناس إليه ، وهى السيدة خديجة دون أنْ تسمع منه آية واحدة ، وكذلك الصِّديق أبو بكر وغيرهما من المؤمنين الأوائل ، لماذا ؟

لأنهم بَنَوْا على تاريخه السابق ، واعتمدوا على سيرته فيهم قبل الرسالة ، فعلموا أن الذى لا يكذب على الناس مستحيل أن يكذب على رب الناس .

والسيدة خديجة رضوان الله عليها تعتبر أول فقيهة ، وأول عالمة أصول فى الإسلام ، حينما جاءها رسول الله ﷺ يشكو ما يعانى ، ويخشى أن يكون ما يأتيه من الوحى رئياً من الجن أو توهمات تفسد عليه عقله وتفكيره ، قالت له - انظر إلى العظمة - « والله إنك لتصل الرحم ، وتَقْرى الضيف ، وتحمل الكَلَّ ، وتُعين على نوائب الدهر ، والله لا يخزيك الله أبداً »[1] .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣) وستة مواضع أخرى من صحيحه ، وأخرجه أيضاً مسلم فى صحيحه (١٦٠) من حديث عائشة رضى الله عنها . ومعنى « تحمل الكل » أى : تعين المثقل ومنه الإنفاق على الضعيف واليتيم والعيال . و « تكسب المعدوم » أى : تستفيد المال المعدوم وقد كان النبى ﷺ محظوظاً فى تجارته . « تقرى الضيف » أى : تطعمه طعام الأضياف . و « نوائب الحق » حادثات الأيام . انظر : شرح النووى على مسلم (٥٦١/٢) وفتح البارى للعسقلانى (١٢٤/١) .

ولما علم الصِّدِّيق بحادثة الإسراء والمعراج بادر بالتصديق، ولم يتردد، ولما سُئل عن ذلك قال: إننا نصدقه فى الأمر يأتى من السماء فكيف لا نصدقه فى هذه، فإنْ كان قال فقد صدق.

إذن: فمقياس الصدق لديه أن يقول رسول الله؛ لذلك استحق الصِّديق هذا اللقب عن جدارة، حتى إن رسول الله ﷺ ليقول فى حقه: «كنتُ أنا وأبو بكر فى الجاهلية كفرسى رهان - يعنى: فى خصال الخير - فسبقتُه إلى النبوة فاتبعنى، ولو سبقنى لاتبعته».

هذه كلها معانٍ نفهمها من قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ.. (١٠٦)﴾ [الشعراء]

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ.. (١٢٨)﴾ [التوبة] فهذه من حكمة الله فى الرسل، وعجيب أن يقول أهل العناد من القوم: نريد ملكاً رسولاً، وأن يقفوا من رسول الله موقف العداء، وكان يجب عليهم على الأقل أن يُمكِّنوه من دعوته، ويُمكِّنوا عقولهم من أنْ تفهم لا أن تدخل فى الأمر على هوى سابق.

فالذى يتعب الناس فى استقبال الحق أن تكون قلوبهم مشغولة بباطل، والحق لا يجتمع مع الباطل ولا يضمهما محلٌّ واحد؛ لذلك إذا أردت أن تبحث فى مسألة، فعليك أنْ تُخرِج من قلبك الباطل أولاً، ثم حكِّم عقلك فى الأمر، واستفتِ قلبك فما سمح به فأدخله.

وهذه نراها حتى فى الماديات، فالحيز الواحد لا يسع شيئين أبداً، يقولون: عدم تداخل، كما لو ملأت قارورة بالماء مثلاً، فقبل أن يدخل الماء لا بُدَّ أنْ يخرج الهواء، فنراه على شكل فقاعات.

لذلك يقول تعالى : ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَـٰوَاتُ وَالْأَرْضُ .. (٧١)﴾ [المؤمنون]

ولك أن تلاحظ مثلاً زجاجة (الكولونيا) ذات الثُّقْب الضيق إذا وضعْتها فى الماء ، لا يمكن أن يدخلها الماء ، لماذا ؟ لأن ثقبها ضيق ، لا يسمح بخروج الهواء أو دخول الماء .

ولأمر ما سُمِّى الهوى من الهواء ، فكما أن الهواء الذى نُحسُّه لو أتى من ناحية واحدة لمبنى أو جبل مثلاً لانهدم إلى الناحية الأخرى ، لماذا ؟ لأن الهواء هو الذى يتولّى حفْظ توازن هذه المبانى العالية وناطحات السحاب التى نراها ، يحفظ توازنها حين يحيط بها من كل جهاتها ، فإنْ فرّغتَ الهواء من إحدى الجهات انهدم المبنى فى نفس هذه الجهة .

والهواء من القوى العظيمة التى يستخدمها الإنسان ويُحوِّلها إلى طاقة ، وانظر مثلاً إلى قوة تفريغ الهواء وما تُحدثه من هزة عنيفة ، أو إلى الحاويات والشاحنات العملاقة التى تسير على الهواء فى عجلاتها ، وكذلك الهوى إنْ كان فى الباطل كان قوياً ومدمراً ، ومن هذا المعنى سُمِّى السقوط هوياً ، تقول : هَوَى الشىء يعنى : سقط .

وقوله : ﴿أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦)﴾ [الشعراء] هذه الكلمة جاءت على لسان كل الرسل أو يقولها الرسول أوّلَ ما يبعث ، ومعناها : اتقوا الله و (ألاَ) أداة للحضّ والحثّ على الفعل . كما تقول للولد المهمل : ألاَ تذاكر أو هَلاَّ تذاكر .

وحين نحلل أسلوب الحضّ أو الحثّ نجد أنه يأتى على صورة التعجب من نفى الفعل ، كما تقول للولد الذى لا يصلى وتريد أن تحثّه على الصلاة : ألا تصلى ؟ استفهام بالنفى وعندها يستحى الولد أن يقولها ، لكن حين تستفهم بالإثبات : أتصلى ؟ يقولها بفخر : نعم .

إذن : معنى الحثِّ : تعجُّب من ترْك الفعل وإنكار يحمل معنى الأمر .

فمعنى : ﴿ أَلا تَتَّقُونَ (١٠٦) ﴾ [الشعراء] أُنكر عليكم ألاَّ تكونوا متقين ، والمراد : أطلب منكم أن تكونوا متقين ، وما دُمْت قد أنكرت النفى فلا بُدَّ أنك تريد الإثبات .

﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) ﴾

وقوله تعالى : ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) ﴾ [الشعراء] فإنْ كانت عندكم غفلة فقد رَحم الله غفلتكم ، ونبَّهكم برسول أمين يَعظكم ويعلّمكم ويُبلّغكم منهج الله ، وهو أمين لن يغشّكم فى شىء حتى لا تقولوا : إنَّا كنَّا غافلين .

وما دُمْت أنا مرسلاً من الله إليكم ، وأميناً عليكم وعلى دعوتى ، فاسمعوا منى ؛ لذلك كرَّر الأمر بالتقوى :

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) ﴾

وكأنه يتصالح معهم ، فيُخفف من أسلوب النُّصْح ، ويأتى بالأمر صريحاً بعد أن أتى به فى صورة إنكار ألاَّ يكونوا متقين . وثمرة التقوى طاعة الأوامر واجتناب النواهى ، وهذه لا نعرفها إلا من الرسول حامل المنهج ومُبلِّغ الدعوة والأمين عليها .

وقد ترددتْ هذه الآية على ألسنة كثير من رسل[1] الله : ﴿ إِنِّي

---

(١) وردت هذه الآية ٦ مرات ، خمس منها فى سورة الشعراء : (آية ١٠٧ فى حق نوح) (آية ١٢٥ فى حق هود) ، (آية ١٤٣ فى حق صالح) ، (آية ١٦٢ فى حق لوط) ، (آية ١٧٨ فى حق شعيب) ، والآية السادسة فى سورة الدخان (آية ١٨ فى حق موسى) .

لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) ﴾ [الشعراء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) ﴾

هذه العبارة ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ .. (١٠٩) ﴾ [الشعراء] لم نسمعها على لسان إبراهيم عليه السلام ، ولا على لسان موسى عليه السلام ، فأول مَنْ قالها نوح عليه السلام ، وكوْنك تقول لآخر : أنا لا أسألك أجْراً على هذا العمل ، فهذا يعنى أنك تستحق أجراً على هذا العمل ، وأنت غير زاهد فى الأجر ، إنما إنْ أخذته من المنتفع بعملك ، فسوف يُقوِّمه لك بمقاييسه البشرية ؛ لذلك من الأفضل أن تأخذ أجرك من الله .

فكأن نوحاً عليه السلام يقول : أنتم أيها البشر لا تستطيعون أن تُقوِّموا ما أقوم به من أجلكم ؛ لأننى جئتكم بمنهج هداية يُسعدكم فى الدنيا ، ويُنجيكم فى الآخرة ، وأنتم لن تُقوِّموا هذا العمل ، وأجرى فيه على الله ؛ لأنكم تُعطون على قَدْر إمكاناتكم وعلمكم .

وسبق أنْ حكيْنَا لكم قصة الرجل الذى قابلناه فى الجزائر ، وكان رجلاً تبدو عليه علامات الصلاح ، وقد أشار لنا لنقف بسيارتنا ونحمله معنا ، فلما توقفنا ليركب معنا مالَ إلى السائق ، وقال (على كم) يعنى : الأجرة فقال له الرجل ، وكان المحافظ : نُوصلك لله ، فقال (غلّتها يا شيخ) . نعم ، إنْ كان الأجر على الله فهو غَالٍ .

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (٤٠) ﴾ [الطور]

ثم يقول : ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩)﴾ [الشعراء] إنْ هنا بمعنى ما النافية ؛ لأنه تعالى القادر على أن يُكافئنى على دعوتى ، فهو الذى أرسلنى بها ، وهو سبحانه رب العالمين الذى تبرع بالخَلْق من عدم ، وبالإمداد من عدم ، وخلق لى ولكم الأرزاق ، وهذا كله لصالحكم ؛ لأنه سبحانه لا ينتفع من هذا بشىء .

والربوبية تقتضى عناية ، وتقتضى نفقة وخلقاً وإمداداً ، فصاحب كل هذه الأفضال والنعم هو الذى يعطينى أجرى .

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١١٠)﴾

بعد أن بيَّن لهم كرم الربوبية فى مسألة الأجر على الدعوة وأعطاهم ما يشجعهم على التقوى وعلى الطاعة ؛ لأنهم سينتفعون برسالة الرسول دون أجر منهم . ومعنى ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وأَطِيعُونِ (١١٠)﴾ [الشعراء] أى : ليست لى طاعة ذاتية ، إنما أطيعونى ؛ لأنى رسول من قبَل الله تعالى .

ثم يقول الحق سبحانه حاكياً ردَّهم على نوح عليه السلام :

﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (١١١)﴾

الأَرْذَلُونَ : جمع أرذل ، وهو الردىء من الشىء . ورُذَال الفاكهة : المعطوب منها وما نسميه (نقاضة) والاستفهام هنا للتعجب : كيف نؤمن لك ونحن السادة ، والمؤمنون بك هم الأرذلون ؟

يقصدون الفقراء وأصحاب الحرَف والذين لا يُؤْبَه بهم ، وهؤلاء عادة هم جنود الرسالة ؛ لأنهم هم المطحونون من المجتمع الفاسد ، وطبيعى أن يتلقفوا مَنْ يعدل ميزان المجتمع .

وفى آية أخرى : ﴿مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا .. (٢٧)﴾ [هود]

وقولهم : ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ .. (١١١)﴾ [الشعراء] دليل على عدم فهمهم لحقيقة الإيمان ؛ لأنه لم يقُلْ لهم : آمنوا بى ، إنما آمنوا بالله .

أو : أن المعنى ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ .. (١١١)﴾ [الشعراء] أى : نُصدِّقك فمن معانى آمن أى : صدَّق ، كما فى قوله تعالى : ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ .. (٨٣)﴾ [يونس] أى : صدَّق به ، وآمن تكون بمعنى صدَّق إذا جاءت بعدها اللام ، فإنْ جاء بعدها الباء فهى بمعنى الإيمان[1] .

﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[2] (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣)﴾

يعنى : ما دام الحساب على ربى وهم يريدون الإيمان ، فلا بُدَّ أنْ يأخذوا جزاءهم وافياً ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ[3] (١١٣)﴾ [الشعراء]

---

(١) قال تعالى ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣)﴾ [الزمر] وقال : ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦)﴾ [الليل] .

(٢) أى : لم أُكلَّف العلم بأعمالهم ، إنما كُلِّفت أن أدعوهم إلى الإيمان ، والاعتبار بالإيمان لا بالحرف والصنائع ، وكأنهم قالوا : إنما اتبعك هؤلاء الضعفاء طمعاً فى العزة والمال . فقال : إنى لم أقف على باطن أمرهم وإنما إلىَّ ظاهرهم . [تفسير القرطبى ٧/٥٠٠٠] .

(٣) قال القرطبى فى تفسيره (٧/٥٠٠٠) : « قراءة العامة « تشعرون » بالتاء على المخاطبة للكافر وهو الظاهر . وقرأ ابن أبى عبلة ومحمد بن السميقع « لو يشعرون » بالياء كأنه خبر عن الكفار وترك الخطاب لهم » .

﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾

وقد طلبوا منه أن يطرد هؤلاء المؤمنين من مجلسه ليُجلسهم هم ، وفى آية أخرى قال سبحانه لنبيه محمد ﷺ : ﴿ وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾[الأنعام]

﴿ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ ﴾

فمَنْ يسمع إنذارى ، ويسمع بشارتى ، ويأتى مجلسى ، فعلى عينى أرافقه . فالله ما أرسلنى لأخص ذوى الغنى دون الفقراء بمجلسى ، إنما أرسلنى لأبلغكم ما أرسلت به ، فمن أطاعنى فذلك السعيد عند الله ، وإن كان فقيراً .

﴿ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ[1] ﴿١١٦﴾ ﴾

وهكذا أعلنوا الحرب على نبى الله نوح ، يقولون : لا فائدةَ من تحذيرك ، وما زلْتَ مُصراً على دعوتك ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ .. ﴿١١٦﴾ ﴾ [الشعراء] عما تدعيه من الرسالة ، وما تقول به من تقوى الله وطاعته ، وما تفعله من تقريب الأرذلين إلى مجلسك ، لتكوِّن جمهوراً من صغار الناس .

(١) الرجم : القتل . وأصله الرمى بالحجارة . والرجم : اللعن والشتم والسب . [لسان العرب ـ مادة : رجم] . قال الثمالى : كل مرجومين فى القرآن فهو القتل إلا فى سورة مريم ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ .. ﴿٤٦﴾ ﴾ [مريم] أى : لأسبنك . وقيل : (من المرجومين) من المشتومين قاله السدى . [تفسير القرطبى ٥٠٠١/٧] .

﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦) ﴾ [الشعراء] أى : إذا لم تنته فسوف نرجمك ، إنه تهديد صريح للرسول الذى جاءهم من عند الله يدعوهم إلى الخير فى الدنيا والآخرة .

كما قال سبحانه : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. (٢٤) ﴾ [الأنفال]

وهذا التهديد منهم لرسول الله يدلُّ على أنهم كانوا أقوياء ، وأصحابَ جاه وبطْش .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨) ﴾

تأمل هنا أدب نوح ـ عليه السلام ـ حين يشكو قومه إلى الله ويرفع إليه ما حدث منهم ، كل ما قاله ﴿ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ (١١٧) ﴾ [الشعراء] ولم يذكر شيئاً عن التهديد له بالرجم ، وإعلان الحرب على دعوته ، لماذا ؟ لأن ما يهمه فى المقام الأول أن يُصدِّقه قومه ، فهذا هو الأصل فى دعوته .

وقوله : ﴿ فَافْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا .. (١١٨) ﴾ [الشعراء] الفتح فى الشىء إما : حسياً وإما معنوياً ، فمثلاً الباب المغلَق بقُفْل نقول : نفتح الباب : أى نزيل أغلاقه .

فإنْ كان الشىء مربوطاً نزيل الأشكال ونفكّ الأربطة .

ومن ذلك قوله تعالى فى قصة يوسف : ﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ .. (٦٥) ﴾ [يوسف] أى : أزالوا الرباط عن متاعهم ، هذا هو الفتح الحسىّ .

أما الفتح المعنوى فنُزيل الأغلاق والأشكال المعنوية ليأتى الخير وتأتى البركة ، كما فى قوله سبحانه : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ .. (٩٦) ﴾ [الأعراف]

وفى آية أخرى : ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ .. (٢) ﴾ [فاطر]

والخير الذى يفتح الله به على الناس قد يكون خيراً مادياً ، وقد يكون علْماً ، كما فى قوله تعالى : ﴿ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ .. (٧٦) ﴾ [البقرة]

أى : من العلم فى التوراة ، يخافون أن يأخذه المؤمنون ، ويجعلوه حجة على أهل التوراة إذا ما كان لهم الفتح والغَلَبة ، فمعنى : ﴿ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ .. (٧٦) ﴾ [البقرة] أى : بما علَّمكم من علم لم يعلموه هم .

وقد يكون الفتح بمعنى الحكم ، مثل قوله سبحانه : ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩) ﴾ [الأعراف]

ويكون الفتح بمعنى النصر ، كما فى قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) ﴾ [النصر]

ثم يقول نوح عليه السلام : ﴿ وَنَجِّنِي .. (١١٨) ﴾ [الشعراء] من كيدهم وما يُهدِّدوننى به من الرَّجْم ﴿ وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨) ﴾ [الشعراء] لأن الإيذاء قد يتعدّاه إلى المؤمنين معه ، وتأتى الإجابة سريعة :

﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩) ﴾

وقد وردتْ قصة السفينة في الأعراف ، وفي هود ، ولنوح عليه السلام سورة خاصة هي سورة نوح مثل سورة محمد ؛ ذلك لأن له في تاريخ الرسالات ألف سنة إلا خمسين عاماً ، ويستحق أنْ يخصَّه الله تعالى بسورة باسمه .

لذلك عندما يكرر أحد الناس لك الكلام ، ويُعيده عليك ، تقول له (هيَّه سورة) ، فكلام العامة والأميين له أصْلٌ من استعمال اللغة .

وفي موضع آخر ذكر الحق ـ تبارك وتعالى ـ قصة صُنْع السفينة في قوله تعالى : ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ.. (٣٨)﴾ [هود] وهذا دليل على أنها كانت أول سفينة يصنعها الإنسان ، وقد صنع نوح سفينته بأمر الله ووحيه وتحت عينه تعالى ، وفي رعايته : ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا .. (٣٧)﴾ [هود]

وما كان الله تعالى ليُكلِّفه بصُنْع السفينة ثم يتركه ، إنما تابعه ، حتى إذا ما حدث خطأ نبَّهه إليه من البداية ، كما قال تعالى لسيدنا موسى : ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩)﴾ [طه]

وبمثل هذه الآيات نردُّ على الذين يقولون : إن الله تعالى زاول سلطانه في مُلْكه مرة واحدة فخلق الخَلْق ، ثم ترك القوانين تسيره ، ولو كان الأمر كذلك لوجدنا العالم كله يسير بحركة (ميكانيكية) ، لكن ظواهر الكون وما فيه من معجزات تدلُّ على قيوميته تعالى على خَلْقه.

لذلك يقول لهم : ناموا ملء جفونكم ، فإن لكم رباً لا ينام ، كيف لا وأنت إذا استأجرتَ حارساً لمنزلك مثلاً تنام مطمئناً اعتماداً على أنه يَقظ ؟ وكيف إذا حرسك ربُّك عز وجل الذي لا تأخذه سِنَة ولا نَوْمٌ ؟ وألاَ يدلُّ ذلك على قيوميته تعَالى ؟

هذه القيومية التى تنقضُ العزائم ، وتفسَخ القوانين ، قيومية تقول للنار كونى برداً وسلاماً فتكون ، وتقول للماء : تجمَّد حتى تكون جبلاً فيتجمد ، تقول للحجر : انفلق فينفلق .. ولو كان الأمر (ميكانيكياً) كما يقولون لما حدث هذا ، ولما تخلَّف قانون واحد من قوانين الكون .

والمشحون : الذى امتلأ ، ولم يَبْقَ به مكان خَال ، فكانت السفينة مشحونة بما حمل فيها ، لأنها صُنِعَتْ بحساب دقيق ، لا يتسع إلا لمن كُلِّف نوح بحملهم فى سفينته ، وكانوا ثمانين رجلاً وثمانين امرأة[1] ومن كل حيوان زوجين اثنين .

والفلك المشحون يُطلَق ويُراد به الواحدة ، ويُطلَق ويراد به الجماعة كما فى قوله سبحانه : ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم.. (٢٢)﴾ [يونس]

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ (١٢٠)﴾

وهم الكافرون الذين لم يركبوا معه ، و ﴿بَعْدُ .. (١٢٠)﴾ [الشعراء] أى : بعد ما ركب من ركب ، وبعد ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢)﴾ [القمر]

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٢١)﴾

والآية : الأمر العجيب الذى يجب الالتفات إليه والاعتبار به ، لكن مَنْ سيعتبر بعد أنْ غرق الباقون ؟ سيعتبر بهذه الآية المؤمنون الذين ركبوا السفينة حين يرونَ نتيجة التكذيب ، ومصير المكذِّبين الكافرين .

---

(١) عن ابن عباس : كانوا ثمانين نفساً منهم نساؤهم . وعن كعب الأحبار : كانوا اثنين وسبعين نفساً . وقيل : كانوا عشرة . [قاله ابن كثير فى تفسيره ٢/٤٤٥] .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٢٢) ﴾

أى : ورغم كُفْرهم وتكذيبهم ، ورغم أنه ما كان أكثرهم مؤمنين ، فالله تـعالى هو العـزيز الذى يَغْلب ولا يُغْلَب ، وهو سبـحانه الرحـيم بعباده الذى يتوب على مَنْ تاب منهم .

ثم ينتقل السياق إلى قصة أخرى فى موكب الأمم المكذِّبة :

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) ﴾

وقال هنـا أيضاً ﴿ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) ﴾ [الشـعراء] لأن تكذيب رسـول واحد تكذيبٌ لكل الرسل ؛ لأنهم جـميعاً جاءوا بقواعـد وأصول واحدة فى العقائد وفى الأخلاق .

وعاد : اسم للقبيلة ، وكانت القبـائل تُنسَب إلى الأب الأكبر فيها ، ولصاحب الشهرة والنباهة بين قومـه ، فعاد هو أبو هذه القبيلة ، وقد يُطلَق عليهم بنو فلان أو آل فلان ، ثم يذكر لنا قـصتهم ، ومتى كان منهم هذا التكذيب :

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) ﴾

قلنا : إن (ألاَ) للحثِّ والحضِّ ، وحـين يُنكِّر النفى ﴿ ألا تَتَّقُونَ (١٢٤) ﴾ [الشعراء] فإنه يريد الإثبات فكأنه قـال : اتقوا . وقال ﴿ أَخُوهُمْ .. (١٢٤) ﴾ [الشعراء] ليرقق قلوبهم ويُحنِّنهم إليه ، وليـعرفوا أنه واحد منهم ليس غريباً عنهم ، فهو أخوهم ، والأخ من دأبه النُّصْح والشفقة والرحمة ، وهذا إيناس للخَلْق .

﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) ﴾

وهذه المقولة لازمة من لوازم الرسُل فى دعوتهم ، سبق أنْ قالها نوح عليه السلام .

﴿ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ ﴾

قلنا : إن هذه العبارة أول مَنْ قالها نوح - عليه السلام - ثم سيقولها الأنبياء من بعده . لكن : لماذا لم يقل هذه العبارة إبراهيم ؟ ولم يقُلْها موسى ؟

قالوا : لأن إبراهيم - عليه السلام - أول ما دعا دعا عمه آزر ، فكيف يطلب منه أجْراً ؟ وكذلك موسى - عليه السلام - أول دعوته دعا فرعون الذى ربَّاه فى بيته ، وله عليه فضل وجميل ، فكيف يطلب منه أجراً ، وقد قال له : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الشعراء]

لذلك لم تأت هذه المقولة على لسان أحد منهما .

وقال : ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [الشعراء] لأن الربَّ هو الذى يتولَّى الخَلْق بالبذْل والعطايا والإمداد . وقلنا : إن عدم أخذ الأجر ليس زُهْداً فيه ، إنما طمعاً فى أنْ يأخذ أجره من الله ، لا من الناس .

ثم يتوجّه إليهم ليُصحِّح بعض المسائل الخاصة بهم :

﴿ أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾

وهذه خصوصية من خصوصيات قوم هود ، والرِّيع : هو المكان المرتفع ، لذلك بعض الناس يقولون : كم رِيع بنائك ؟ يعنى : ارتفاعه

كم متراً ، فكأن الارتفاع يُثمِّن البقعة ، ويُطلق الريع على الارتفاع فى كل شيء[1] .

وكلمة ﴿آيَةً .. (١٢٨)﴾ [الشعراء] بعد ﴿أَتَبْنُونَ .. (١٢٨)﴾ [الشعراء] تعنى : القصور العالية التى تعتبر آيةً فى الإبداع وجمال العمارة والزخرفة والفخامة والاتساع والرِّفْعة فى العُلُو .

وقال ﴿تَعْبَثُونَ (١٢٨)﴾ [الشعراء] لأنهم لن يخلُدوا فى هذه القصور ، ومع ذلك يُشيِّدونها لتبقى أجيالاً من بعدهم ، فعدَّ هذا عبثاً منهم ؛ لأن الإنسان يكفيه أقلّ بناء ليأويه فترة حياته .

أو ﴿تَعْبَثُونَ (١٢٨)﴾ [الشعراء] لأنهم كانوا يجلسون فى شُرفات هذه القصور يصدُّون الناس ، ويصرفونهم عن هود وسماع كلامه ودعوته التى تَلْفِتهم إلى منهج الحق .

ونحن لم نَرَ حضارة عاد ، ولم نَرَ آثارهم ، كما رأينا مثلاً آثار الفراعنة فى مصر ؛ لأن حضارة عاد طمرتْها الرمال ، وكانوا بالجزيرة العربية فى منطقة تُسمَّى الآن بالرُّبْع الخالى ؛ لأنها منطقة من الرمال الناعمة التى يصعب السير أو المعيشة بها ، لكن لكى نعرف هذه الحضارة نقرأ قوله تعالى فى سورة الفجر :

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى الْبِلادِ (٨)﴾ [الفجر]

---

(١) فى كلمة الريع أقوال :
- ما ارتفع من الأرض فى قول ابن عباس وغيره .
- الريع : الطريق ، قاله قتادة والضحاك والكلبى ومقاتل والسدى ، وابن عباس أيضاً .
- الريع : الفج بين الجبلين . قاله مجاهد .
- الريع : بنيان الحمام ، دليله « تعبثون » أى : تلعبون ، أى : تبنون بكل مكان مرتفع آية علماً تلعبون بها على معنى أبنية الحمام وبروجها . [تفسير القرطبى ٥٠٠٢/٧ ، ٥٠٠٣] .

وما دامت لم يُخلَق مثلها في البلاد ، فهي أعظم من حضارة الفراعنة التي نشاهدها الآن ، ويفد إليها الناس من كل أنحاء العالم ليشاهدوا الأهرام مثلاً ، وقد بنيت لتكون مجرد مقابر ، ومع تقدُّم العلم في عصر الحضارة والتكنولوجيا ، ما زال هذا البناء مُحيِّراً للعلماء ، لم يستطيعوا حتى الآن معرفةَ الكثير من أسراره .

ومن هذه الأسرار التي اهتدَوْا إليها حديثاً كيفية بناء أحجار الأهرام دون ملاط[1] مع ضخامتها ، وقد توصَّلوا إلى أنها بُنيَتْ بطريقة تفريغ الهواء مما بين الأحجار ، وهذه النظرية تستطيع ملاحظتها حين تضع كوباً مُبلّلاً بالماء على المنضدة مثلاً ، ثم تتركه فترةً حتى يتبخر الماء من تحته ، فإذا أردتَ أن ترفعه من مكانه تجده قد لصق بالمنضدة .

وليس عجيباً أنْ تختفي حضارةٌ ، كانت أعظم حضارات الدنيا تحت طبقات الرمال ، فالرمال حين تثور تبتلع كل ما أمامها ، حتى إنها طمرتْ قبيلة كاملة بجمالها ورجالها ، وهذه هبة واحدة ، فما بالك بثورة الرمال ، وما تسفوه الريح طوال آلاف السنين ؟

وأنا واثق من أنهم إذا ما نبشوا هذه الرمال وأزاحوها لوجدوا تحتها أرضاً خصبة وآثاراً عظيمة ، كما نرى الاكتشافات الأثرية الآن كلها تحت الأرض ، وفي فيينا أثناء حفر أحد خطوط المجاري هناك وجدوا آثاراً لقصور ملوك سابقين .

وطالما أن الله تعالى قال عن عاد : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) ﴾ [الشعراء] فلا بُدَّ أن هناك قصوراً ومبانيَ مطمورة تحت هذه الرمال .

---

(١) ملط الحائط : طلاه . والملاط : الطين الذي يُجعل بين سافَي البناء ويُملط به الحائط . [لسان العرب - مادة : ملط] .

﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾

المصانع تُطلَق على موارد الماء ، وتطلق على الحصون ، لماذا ؟

قالوا : لأن الحصون لا تُبنَى للإيواء فقط ؛ لأن الإيواء يمنع الإنسان من هوام الحياة العادية ، أمّا الحصون فتمنعه أيضاً من الأعداء الشرسين الذين يتربصون به ، فكأنهم جعلوها صنعة مثمرة ، لماذا ؟

﴿ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [الشعراء] يعنى : أتبنون هذه الحصون هذا البناء القوى المسلح تريدون الخلود ؟ وهل أنتم مُخلَّدون فى الحياة ؟ إن فترة مُكْث الإنسان فى الدنيا يسيرة لا تحتاج كل هذا التحصين ، فهى كظلٍّ شجرة ، سرعان ما يزول .

﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾

والبَطْش : الأخْذُ بشدة وبعنف ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [البروج] ويقول : ﴿ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ [القمر]

لأن الأخْذ يأخذ صُوراً متعددة : تأخذه بلين وبعطف وشفقة ، أو تأخذه بعنف .

ثم يزيدهم صفة أخرى تؤكد بَطْشهم ﴿ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [الشعراء]

لأنك قد تأخذ عدوك بعنف ، لكن بعد ذلك يرقّ له قلبك ، فترحم ذلّته لك ، فتُهوِّن عليه وترحمه ، لكن هؤلاء جبارون لا ترقّ قلوبهم .

وهذه الصفات الثلاثة السابقة لقوم هود : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [الشعراء]

هذه الصفات تخدم صفة التعالى ، وتسعى إلى الوصول إليه وكأنهم يريدون صفة العُلُو التى تُقرِّبهم من الألوهية ؛ لأنه لا أحدَ أعلى من الحق سبحانه ، ثم يريدون أيضاً استدامة هذه الصفة واستبقاء الألوهية : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) ﴾ [الشعراء]

وفى صفة البَطْش الشديد والجبارية يريدون التفرُّد على الغير ، والقرآن يقول : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا .. (٨٣) ﴾ [القصص]

فإنْ كنتَ تريد أداء الخدمة المنوطة بك فى الحياة ، فعليك أنْ تؤديها ، لا للتَّعالى ؛ لأنك حينئذ ستأخذ حظك من العُلُو والغَلَبة فى دار الدنيا وتنتهى المسألة ، أمَّا إنْ فعلتَ وفى بالك ربُّك ، وفى بالك أنْ تُيسِّر للناس مصالح الحياة ، فإنك تُرقِّى عملك وتُثمِّره ، ويظل لك أجره ، طالما وجد العمل ينتفع الناس به إلى أنْ تقوم الساعة ، وهذا أعظم تصعيد لعمل الإنسان .

ولم يفعل قوم عاد شيئاً من هذا ، إنما طلبوا العُلُو فى الأرض ، وبطشوا فيها جبارين ، لكن أيتركهم ربهم عز وجل يستمرون على هذه الحال ؟

إن من رحمة الله تعالى بعباده أنْ يُذكِّرهم كلما نَسُوا ، ويُوقظهم كلما غفلوا ، فيرسل لهم الرسل المتوالين ؛ لأن الناس كثيراً ما تغفل عن العهد القديم الذى أخذوه على أنفسهم : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) ﴾ [الأعراف]

وقلنا : إن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يضع المناعة فى خليفته فى

الأرض ، ويعطيه المنهج الذى يصلحه ، لـكنه قد يغفل عن هذا المنهج أو تغلبه نفسه ، فينحرف عنه ، والإنسان بطبيعته يحمل مناعةً من الحق ضد الباطل وضد الشر ، فإنْ فَسدَتْ فيه هذه المناعة فعلى الآخر أن يُذكِّره ويُوقظ فيه دواعيَ الخير . ومن هنا كان قوله تعالى : ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ [العصر]

فإنْ وجدتَ أخاك على باطل فخُذْ بيده إلى الحق .

ومعنى ﴿ وَتَوَاصَوْاْ .. (٣) ﴾ [العصر] أى : تبادلوا التوصية ، فكل منكم عُرْضة للغفلة ، وعُرْضة للانحراف عن المنهج ، فإنْ غفلتُ أنا توصينى ، وإنْ غفلتَ أنت أوصيك ، وهذه المناعة ليست فى الذات الآن ، إنما فى المجتمع المؤمن ، فمنْ رأى فيه اعوجاجاً قوَّمه .

لكن ما الحال إنْ فسدت المناعة فى الفرد وفسدَتْ فى المجتمع ، فصار الناس لا يعرفون معروفاً ، ولا يُنكرون منكراً ، كما قال تعالى عن بنى إسرائيل :

﴿ كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ .. (٧٩) ﴾ [المائدة]

وعندها لا بد أن يرسل رب العزة سبحانه برسول جديد ، ومعجزة جديدة تُوقظ الناس ، وتعيدهم إلى جادة ربهم .

ومن شرف أمة محمد ﷺ أن الله تعالى جعل المناعة فى ذات نفوسها ، فجعلهم الله توابين ، إنْ فعل أحدهم الذنب تاب ورجع ، وإنْ لم يرجع وتمادى ردَّه المجتمع الإيمانى وذكَّره .

وهذه الصفة ملازمة لهذه الأمة إلى قيام الساعة ، كما ورد فى الحديث : « الخير فىَّ وفى أمتى إلى يوم القيامة »[1] .

---

(١) قال العجلونى فى كشف الخفاء (١/٤٧٦) : « قال (السخاوى) فى المقاصد (الحسنة) : قال شيخنا (ابن حجر العسقلانى) : لا أعرفه ، ولكن معناه صحيح . يعنى فى حديث : لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق إلى أن تقوم الساعة . وقال ابن حجر المكى فى الفتاوى الحديثية : لم يرد بهذا اللفظ » .

لذلك لن يأتى فيها رسول بعد رسول الله ﷺ ؛ لأن المناعة ملازمة لها فى الذات ، وفى النفس اللوامة ، وفى المجتمع الإيمانى الذى لا يُعدم فيه الخير أبداً .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ .. (١١٠) ﴾ [آل عمران]

وهذه صفة تفردتْ بها هذه الأمة عن باقى الأمم ؛ لذلك يقول هود ـ عليه السلام ـ مُذكّراً لقومه ومُوقظاً لهم :

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) ﴾

أى : أن ربكم ـ عز وجل ـ لم يترككم على ما أنتم عليه من الضلال تعبثون بالآيات ، وتتخذون مصانع تطلبون الخلود ، وأنكم بطشتم جبارين ، وها هو يدعوكم : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) ﴾ [الشعراء] فتقوى الله تعالى وطاعته كفيلة أنْ تُذهب ماضيكم وتمحو ذنوبكم ، بل وتُبدِّله خيراً وصلاحاً ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ .. (١١٤) ﴾ [هود]

وأنا حين أُوصيكم بتقوى الله وطاعته ، لا أوصيكم بهذا لصالحى أنا ، فلا أقول لكم : اتقونى أو أطيعونى ولن أنتفع من طاعتكم بشىء . كذلك الحق ـ تبارك وتعالى ـ غنى عنكم وعن طاعتكم ؛ لأن له سبحانه صفات الكمال المطلق قبل أن يخلق الخَلْق ، فهو سبحانه متصف بالخَلْق قبل أن يخلق ، وبالقدرة قبل أن يُوجَد المقدور عليه .. إلخ .

إذن : فوجودكم لم يَزِدْ شيئاً فى صفاته تعالى ، وما كانت الرسالات إلا لمصلحتكم أنتم ، فإذا لم تطيعوا أوامر الله ، وتأخذوا منهجه ، لأنه يفيدكم فأطيعوه جزاءَ ما أنعم عليكم من نعَم لا تُعدُّ ولا تُحصَى ، فالإنسان طرأ على كون أُعِدَّ لاستقباله وهُيِّىء لمعيشته ،